منطقة أنطاكية
وخليج الاسكندرونة

للاستاذ أحمد رمزى بك

لمت كناصية الحصان الأشقر ... نار بمعتلج الكثيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي ... نشزت معاقلها على الاسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت ... تلقى أجنتها بنات الأصفر

هذا شعر للأبيوردى خاطب به ملكشاه بن ألب أرسلان حينما فتحت الدولة السلجوقية أنطاكية ، ولست أعرف ركناً من أركان الدنيا برز فى التاريخ بروز هذه البقعة من الأرض ، فقد لفتت أنظار الإنسان منذ بدأ يفكر وينظم حياته ، فما تأسس ملك أو سيادة أو ظهرت قوة فنية أو دعوة دينية إلا وجعلت من أول أهدافها امتلاك هذه البقعة التي شهدت مصارع الدول ، وحمل صعيدها أرزاء الحروب وما يتخللها من إزهاق الأرواح ، ذلك تاريخها فى القرون الغابرة وهذا عهدنا بها اليوم فى تاريخنا الحديث . لقد شغلت رجال السياسة بعد الحرب الماضية واهتمت بمصيرها هيئة عصبة الأمم ، ثم كان من نصيبها أن ضمت إلى أراضى الجمهورية التركية وبقيت معها طول الحرب العالمية الثانية ، وما انتهت هذه أو قاربت نهايتها واستقلت سوريا ، حتى قامت تطالب بها ، ولا يعلم غير علام الغيوب ما تخبئه لها الأقدار والأيام القادمة .

وإذا ورد ذكر هذه البقعة برز اسم مدينة أنطاكية لأنها رأت من السعد والعظمة فى زمن ملكها أنطيوكس الكبير (٢٢٣ — ١٨٧ ق . م) ما جعلها سيدة المدن . فكان أن أصبحت حاضرة سوريا وفاقت غيرها فى الثروة والعلوم والمتاجر ، ولما دخلت تحت سلطان روما حصل أهلها على حقوق الواطنين فى الدولة الرومانية ، وإذا بها قد أصبحت إحدى عواصم ثلاث كبرى : روما والقسطنطينية وأنطاكية .

ولقد حاول بعض مفكرى الغرب من الفرنسيين أن يجعلوا من ملك أنطيوكس تتمة لملك الاسكندر ومن آثر عمله تكملة لسلطان الغرب على الشرق ، ودليلا على تفوق العقل اليونانى على العقل السامى ، والصورة التي أعطاها العهد القديم والمؤرخ يوسيفوس للعاهل اليونانى تنبىء بأنه كان ملكا مستبداً جباراً ، فقد ورد عنه فى كتاب المؤرخ اليهودى ما يأتى : « إنه دخل مصر بجيش كثيف وعجلات وفيلة وأسطول عظيم فاستحوذ عليها ثم قوى أمره وعظم شأنه حتى استولى على كثير من الأمم وأطاعته ملوك فارس وغيرهم من الملوك فداخله العجب والكبرياء وطغى وتجبر وسبب الكثير من الآلام لأهل الشرق » .

فهذه القوة التي طغت على الشرق يقول عنها الكاتب الفرنسى إنها بقية من عبقرية الاسكندر ، وإن بقاءها كان من ضرورات بقاء الأصلح ، لأنها تحمل قبساً من روح الهيلينية إلى الشرق ، وأنها قوة دافعة منظمة منشئة لأنها أدبت الناس وأخذتهم بالسيف وعلمتهم ما لم يعلموا . ولكن روما لم تلمس الحقائق حين ساقت كتائبها وأخذت أنطاكية مركز هذه الحركة ولذلك لما حطمت الممالك والعروش التي أنشأها أتباع الاسكندر ، كانت تحارب نفوذ الهيلينية فى الشرق وكانت تحطم بأيديها سيطرة الغرب على الأمم الشرقية . فروما حينما تنازعت مع أهل أنطاكية وقضت على عظمتهم مهدت لشعوب الشرق عودة ، بدأت بقيام الفرتيين أو البارتيين وهم قوم عرفوا بشدة المراس والصبر على القتال ، وظهرت فى غضب اليهود بحركة المكابيين وتطورت بظهور المسيحية ضد هذا التحكم ثم فى مذاهبها المختلفة التي يعبر عنها بالكنائس الشرقية ، والتي تعتبر نفثة ضد استحواذ أهل الغرب على المسيحية وهى شرقية فى أصولها ومبادئها ومراميها ، وما كان هذا ليحدث لولا اختلاف الكلمة وتعارض المصالح بين روما والاغريق المحتلين لأراضى الشرق ، فلو تم بينهم التعاون والتفاهم والتآزر والتكاتف وما تمليه وشائج القربى ، لما تهيأت الأسباب لقيام الشرق مرة أخرى ، ولما تفاعلت العوامل التي مهدت السبيل أمام جيوش المسلمين فاستولت بعد قرون قليلة على إرث روما وبيزنطة وما أنشأه الاسكندر من مجد وملك قبل ذلك .

وتلك دعوة لها خطورتها لأن معناها أن الخلاف الذى قام بين فرنسا وبريطانيا على سوريا ولبنان يمثل النزاع الذى نشب

بين روما وأهل أنطاكية فى الشرق وأن الامبراطورية البريطانية تلعب اللعبة الخطرة التى أخفقت بها الامبراطورية الرومانية منذ عشرين قرناً فهى قد قضت على نفوذ فرنسا وأبعدتها عن سواحل البحر الأبيض المتوسط فى شرقيه ، كما زحزحت روما نفوذ الهيلينية عن هذا الشاطىء ، فكانت النتيجة أن خرج الشرق من تحت سيطرة روما واليونانيين وتقلص حكم الغرب عن أمم الشرق ، فإياكم أن يحدث لكم ما حدث للقدماء من قبل ويخرج الشرق من يد بريطانيا وفرنسا على السواء .

وإنما سقنا هذا الحديث للتدليل على أثر هذه البقعة من الأرض فى عقول القوم من ناحية السيطرة الفكرية والرغبة فى التحكم على مقادير الشعوب من شباك يطل علينا ويثير لنا الكثير من المشاكل . ولقد نظرنا إليها من الوجهة التى يرى بها رجل الفكر الغربى فلنجرب نظرة رجل الدين .

كانت أنطاكية مثل الاسكندرية ميداناً للتنازع بين الوثنية والمسيحية ، ذلك التنازع الذى انتهى بانتصار الفكر السامى ممثلا فى تعاليم مُعلّم الناصرة ، ولكن أنطاكية فاقت الاسكندرية فى ناحية أثرها فى حياة المسيحية ، فكلتا المدينتين أوتيت حظها من حياة الترف واللهو والخلاعة والتقاضى عن الفضيلة . ثم قامت فى كل منهما دعوة للخير والصلاح وترك الدنيا والابتهال إلى الله ، ولكن النكبات المتتالية وخصوصاً الزلازل المدمرة جعلت أهلها فى حيرة منها ، وأخيراً قرّر أيهم على أن يطلقوا على أنطاكية إسم « مدينة الله » ويحصنوا بالفضائل وجانبوا الرذائل وتقربوا بهذا لله زلفى ؛ وكان أن عرفت مدينتهم وسط مدن العالم بأنها حازت سلطان الحياة الدينية ، وإذا بكرسيها يتلألأ وسط كراسى ملكوت السماء ، ويقول عنها الناس : ليس فى المسيحية كلها بعد روما سوى أنطاكية الخالدة .

ولذلك لا تعجب إذا وجدت عدداً من رؤساء الطوائف المسيحية يضعها فى المكان الأسمى من نموّه وألقابه الكهنوتية فيقول كل منهم إنه صاحب كرسى أنطاكية وسائر المشرق . وهم على حق فى ذلك لأن أنوار المسيحية أشرقت على الأرض من هذه البقعة ، وانتقلت من مواجهة إسرائيل إلى مواجهة الدنيا ، وفى ذلك يقول القديس لوقا : « وكان الذين تبددوا من أجل الضيق قد اجتازوا فينيقية وقبرص وأنطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود ، ولكن قوماً منهم كانوا قبرصيين وقيراريين فهؤلاء لما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع » .

ففى أنطاكية تحولت الدعوة إلى حركة عالمية . فهذا أثر من تأثير هذه البقعة الفريدة ، التى كانت قبلة الدنيا ومجمع مدنية الشرق مع مدنية الغرب ، ولو أدركتها المسيحية وهى فى إبان مجدها وسطوتها ؛ أى لو تقدمت قرنين من الزمن حيثما كانت أنطاكية حاضرة سوريا وقد فاقت قرطاجنة وصور وصيدا ، فالأغلب على الظن أن كانت تأخذ أنطاكية فى عالم المسيحية مكان روما .

ويجمع المؤرخون على أن أنطاكية كانت مركزاً هاماً للدعوة المسيحية فى القرن الرابع وإن كان هناك من يقرر بأنها كانت منذ البداية أول مركز أرسل منه المبشرون المسيحيون إلى أقطار العالم ، وظهر فيها القديس يوحنا فم الذهب بل كانت مسقط رأسه وسطعت فيها أعماله ومعجزاته ، وكان أهلها مائتى ألف نسمة دخل نصفهم فى الدين الجديد وتصدروا الدعوة إليه ، ولذلك تذكرها الكتب المسيحية بأنها المدينة الأولى فى العظمة بعد روما ، وأنها تأتى فى تاريخ الكنيسة بعد القدس ، وهذا ما جعلها مكاناً يؤمه أهل التقوى والصلاح والعبادة ويهرع إليها الزوار لرؤية ما كانت تحويه من قبور القديسين والأبرار وما عرف عنها من العجائب والمعجزات .

فمدينة هذا تاريخها يأتى ذكرها دائماً فى الكتب المقدسة وفى تاريخ الكنيسة ويتكرر هذا الإسم فى الطقوس والصلوات ويرد فى ألقاب رجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب ، لا شك فى مكانتها وعظمتها واحترامها فى قلوب الناس ، وإن مجرد ذكر اسمها يحرك ذكريات عزيزة على النفس ، وهذا ما تؤكده الآيات الواردة فى أعمال الرسل . « ثم خرج برنابا إلى طرسوس فى طلب شاؤل ولما وجده أتى به إلى أنطاكية ، وتردد سنة كاملة فى هذه الكنيسة وعلّما جمعاً كثيراً حتى أن التلاميذ دعوا مسيحيين بأنطاكية أولا » .

أحمد رمزى